سنة الله في الاستدراج والإملاء
- دراسة قرآنية -

د/ عمر حيدوسي
كلية العلوم الإسلامية - جامعة باتنة1

الملخص:
من سنن الله في خلقه أن يستدرج المكذبين الكافرين من حيث لا يعلمون ويملي لهم أن كيده سبحانه متين. وقد تكررت هذه الصيغة السننية في القرآن الكريم بنفس العبارة. فما معنى ذلك وما دلالاته؟ هذا ما تحاول هذه الدراسة القرآنية المختصرة بيانه وتوضيحه. وذلك من خلال تتبع مفهوم الاستدراج في اللغة العربية وفي القرآن الكريم. ثم بيان أصناف المستدرجين في السياق القرآني من كفار ومكذبين وأمم. ليتبين بعدها الجزاء السنني للاستدراج.
انتقلت الدراسة بعدها لمفهوم الإملاء وصيغه ودلالاته في القرآن الكريم. ليختم البحث ببعض الدلالات السننية لسنة الله في الاستدراج والإملاء كعلاج إلهي سنني عادل رحيم لأمراض اجتماعية خطيرة كالكفر والتكذيب.

Abstract:
From the laws of God in His creation, luring the rejecters and disbelievers, and dictating them to his Almighty solid plot. This formula has been repeated in Qur'an in the same phrase. What are the meanings and implications of this law? This is the theme of this short Quranic study, by tracking the concept of luring in Arabic in the Quran. Then, stating the lured persons and nations, in Quranic context. Then, the penalty of luring.
The study moved beyond the concept of dictation and its formula connotations in the Quran, as divine treatment of some serious social diseases like denial and disbelief.

أولا: مفهوم الاستدراج

أ- الاستدراج في اللغة:

جاء في لسان العرب: استدرجه أي أدناه منه على التدريج فتدرج هو[1].

وفي مفردات الرّاغب الأصفهاني: (سنستدرجهم) معناه نأخذهم درجة فدرجة، وذلك إدناؤهم من الشيء شيئا فشيئا، كالمراقي والمنازل في ارتفاعها ونزولها[2].

أما الفيروز أبادي فيقول: استدرج الله المرء جرّه قليلا قليلا إلى العذاب[3]. وفي المعجم الوسيط: استدرج الله العبد أمهله ولم يباغته [4]. ومن خلال هاته المعاني يتشكّل لدينا تصور أولي لمفهوم الاستدراج؛ فهو في اللغة الإمهال والإدناء مع الجرّ بالتدريج إلى المرغوب قليلا دون مباغتة.

ب- الاستدراج في القرآن الكريم:

وردت مادة الاستدراج مرتين في القرآن الكريم بلفظ سنستدرجهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (182) وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**﴾ (الأعراف: 182-183). وقوله: ﴿**فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**﴾ (القلم: 44-45).

وفي كلا الموضعين، اقترن الاستدراج بـ:

1- كونه منسوبا لله عز وجل، مما يؤكد ربانية سنة الاستدراج.

2- وكونه مقترنا بأن المستدرج جمع لا فرد، مما يفيد أنها سنة جماعية لا فردية، وأن جزاءاتها تعم جميع أفرادها.

3- وكونه مقترنا بأن المستدرجين مكذبون بآيات الله وحديثه، مما يعلل استدراجهم بأنه بسبب تكذيبهم.

4- وكونه مقترنا بجهل المستدرجين لعاقبتهم ومآلهم، فالاستدراج جزاء سنني مفاجئ يدهم المستدرجين وهم في غفلتهم يعمهون.

5- وختاما، يأتي الاستدراج في القرآن دائما مرتبطا بالإملاء، وهي سنة إلهية لصيقة بسنة الاستدراج.

ومن خلال هاته المعاني التي يضفيها السياق القرآني، تتبدّى الدّلالات اللغوية السابقة في المفهوم القرآني للاستدراج مع فارق أنّ القرآن الكريم يخصّص الاستدراج للكافرين فقط، فلا استدراج في الحقّ والخير.

فيكون مفهوم الاستدراج أنّه إمهال الله للكافرين وإدناؤه لهم مع جرّهم إلى العواقب السّننية لكفرهم وتكذيبهم قليلا قليلا عبر جزاءات دنيوية جزئية يغفل عنها المستدرجون حتى تؤول بهم إلى الهلاك والزوال بأيدي أهل الحقّ حسب ما تقتضيه سنن الله في تدافع الحقّ والباطل.

وقد وقف المفسّرون مع مفهوم الاستدراج وبينوا معناه:

يقول الزمخشري: "استدرجه إلى كذا إذا استنزله إليه درجة فدرجة حتى يورّطه فيه"[5].

ويقول القرطبي: "الاستدراج هو الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة"[6].

ويقول الألوسي: "الاستدراج استفعال من الدرجة بمعنى النقل درجة بعد درجة من سفل إلى علوّ فيكون استصعادا أو بالعكس فيكون استنزالا"[7].

وأما الصابوني فيقول: "ومعنى الاستدراج أن يعاملهم باللطف والإحسان، مع تماديهم في الغيّ والإجرام، وذلك بأن تتكاثر عليهم نعم الله تعالى، فيظنّوا أنّها لطف من الله تعالى بهم فيزدادوا بطرا وانهماكا في الغيّ، حتى تحقّ عليهم كلمة العذاب... والاستدراج أن يقربّهم إلى ما يهلكهم ويضاعف عقوبتهم وذلك أنّهم كلّما أقدموا على ذنب فتح الله عليهم بابا من أبواب الخير فيزدادون بطرا وإمعانا في الغيّ والفساد ثمّ يأخذهم تعالى أغفل ما يكونون فهذا معنى قوله تعالى: ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[8].

ثانيا: المستدرجون في القرآن الكريم

بتأمّل آيتي الاستدراج في الأعراف والقلم نجد أنّه عزّ وجلّ يستدرج الكفّار والعصاة، ويستدرج المكذّبين بالآيات والأحاديث، كما أنه تعالى يستدرج الأمم والأقوام الظالمة.

أ- استدراج الكفّار والعصاة:

﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**﴾ (القلم: 44-45) ، من خلال أقوال المفسّرين[9] في هاتين الآيتين ندرك أنّه عزّ وجلّ يستدرج الكفّار والعصاة بأن يغدق عليهم من نعمه فيتخذون ذلك ذريعة للتمادي في الكفر والعصيان وهم في غفلة عن عذاب الله الذي يستدرجون إليه، بل إنّهم يظنّون جاهلين واهمين أنّ الله يكرمهم أو يغفل عنهم وهو في الحقيقة يهينهم، "إنّه سبحانه يمهل ولا يهمل ويملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته وهكذا يكشف عن طريقته وعن سنّته التي قدّرها بمشيئته"[10].

وهذا منتهى العدالة والرحمة الإلهية، فقد "جرت سنّة الله أن يحذر الناسَ نفسَه ليدركوا أنفسهم قبل فوات الأوان، وليعلموا أنّ الأمان الظاهر الذي يدعه لهم هو الفخّ[11] الذي يقعون فيه وهم غارّون، وأنّ إمهالهم على الظلم والبغي والإعراض والضلال هو استدراج له إلى أسوأ مصير، وأنه تدبير من الله ليحملوا أوزارهم كاملة ويأتوا إلى الموقف مثقلين بالذنوب، مستحقّين للخزي والتعذيب.

وليس أكبر من التحذير وكشف الاستدراج والتدبير عدلا ورحمة، والله سبحانه يقدّم لأعدائه وأعداء دينه ورسوله عدله ورحمته في هذا التحذير وذلك النّذير،

وهم بعد ذلك وما يختارون لأنفسهم، فقد كشف القناع ووضّحت الأمور"[12].

ب- استدراج المكذبين:

صرح السياق القرآني في الموضعين أن الاستدراج مقترن بالمكذبين، لأن "من سنته تعالى في الاستدراج استدراج المكذبين بآياته تعالى.

قال عز وجل: ﴿**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (الأعراف: 182).

والمعنى أن الذين كذبوا بآيات الله ولم تنفعهم هداية الهادين كأهل مكة وغيرهم سنستدرجهم أي سنقربهم إلى الهلاك شيئا فشيئا من حيث لا يعلمون ما يراد بهم وذلك بإدرار النعم عليهم مع انغماسهم في الغي والتكذيب، فكلما جدّد الله لهم نعمة ازدادوا بطرا وأشرا وجددوا معصية فيتدرجون في المعاصي بسبب ترادف النعم عليهم ظانين أنّ ذلك من الله إكراما لهم وتقريبا لهم منه، وإنما هذه النعم خذلان منه وتبعيد واستدراج" [13].

ج- استدراج الأمم:

تحدث القرآن الكريم عن استدراج الله عز وجل للأمم الظالمة ولكن بغير الصيغة الصريحة، فعبر بالأخذ بغتة وهو مدلول الاستدراج.

قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (43) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (44) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾(الأنعام: 42-45).

جاء في تفسير ابن كثير: "مَكَرَ [اللهُ تعالى] بالقوم ورب الكعبة، أُعطوا حاجتهم ثم أُخذوا، وقال قتادة: بَغَتَ القومَ أمرُ الله وما أخذ الله قوما قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم فلا تغتروا بالله فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون.

وقال مالك عن الزهري ﴿**فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ قال: أرجاء الدنيا وسترها. عن النبي ﷺ أنه قال: "إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج" ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ**﴾ (الأنعام: 44)[14].

وفي الأثر: إذا رأيت الله عز وجل يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره[15].

وعنه ﷺ أنه كان يقول: "إذا أراد الله بقوم بقاء أو نماء رزقهم القصد والعفاف، وإذا أراد الله بقوم اقتطاعا فتح لهم أو فتح عليهم باب خيانة"[16].

"حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون" كما قال: ﴿**فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (الأنعام: 45)"[17].

وجاء في روح المعاني أنهم لما انهمكوا في معاصيهم ولم يتعظوا بما نالهم من البأساء والضراء، فتح الله عليهم من النعم الكثيرة كالرخاء وسعة الرزق مكرا بهم واستدراجا لهم حتى إذا فرحوا فَرَحَ بَطرٍ بما آتاهم الله من النعم ولم يقوموا بحق المنعم عاقبهم الله وأنزل بهم العذاب فجأة فإذا هم آيسون من النجاة والرحمة، وحينها يستأصلون ولا يبقى منهم أحد، والحمد لله على ما جرى عليهم من النكال والإهلاك فإن إهلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم الفاسدة وأعمالهم الخبيثة نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها[18].

ثالثا: الجزاء السنني للاستدراج

إن الاستدراج في حد ذاته عقاب إلهي وجزاء سنني للكفرة العصاة المكذبين أفرادا كانوا أم أمما، لكن طبيعة الاستدراج تقتضي - كما سبق- غفلتهم عن الجزاء بسبب إنعام الله عليهم، والجزاء الحقيقي الذي سيحس به هؤلاء المستدرجون حينما يبغتهم العذاب على مهل وهم لاهون عنه. "ومن آيات الاستدراج التي ذكرناها في الفقرات السابقة يتبين لنا أن سنة الله في المستدرجين إمهالهم بعد أن لم يتعظوا بما امتحنهم الله به من صنوف البأساء والضراء أو بما امتحنهم به من النعم أو بعد أن كذبوا بآيات الله التي من شأنها أن تحمل المتأمل فيها على الإيمان" [19].

ثم تفعل سنة الاستدراج فعلها "في إهلاك الظالمين بالإمهال ثم بالعذاب والنكال، فالله سبحانه يمهل ولا يهمل، ويؤخر العصاة والمجرمين، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، من حيث لا يعلمون ولا يشعرون"[20].

وكيف يعلمون أو يشعرون؟ وأين مكرهم من مكر الله؟ "إن لله مكرا بالمجرمين قد تذهلهم عنه لذات عاجلة أو انتصارات خادعة أو تقلب في البلاد مقرون بالسطوة والكبر"[21].

وإذا كانت سنة الاستدراج هلاكا للكافر، فإنها عظة وعبرة للمؤمن في كيفية مقابلة النعم الإلهية، "إن نعم الله تقابل بالشكر، وهذا هو منهج المؤمنين ومسلكهم في الحياة، فكل نعمة يعطاها المؤمن يقابلها بطاعة جديدة وشكر جديد، فإذا غفل عن هذا ونسي شكر النعمة بشكر المنعم فهو مقصر وغافل، فإذا قابل النعمة بالمعصية فهو مستدرج. والفاصل بين المقصر والمستدرج خيط دقيق جدا، فإن المقصر في شكر النعمة غفلة منه وجهلا قد ينزلق إلى منحدر الاستدراج، ولذلك كان العارفون يخشون على أنفسهم الاستدراج وأن يكونوا مستدرجين إذا

توالت عليهم النعم مع احتمال تقصيرهم في شكرها فيكون ذلك علامة استدراجهم" [22].

ولهذا قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- لما حملت إليه كنوز كسرى: اللهم إني أعوذ بك أن أكون مستدرجا، فإني أسمعك تقول: ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (الأعراف: 182)[23].

وقال الحسن البصري - رحمه الله-: كم من مستدرج بالإحسان إليه، وكم مفتون بالثناء عليه، وكم مغرور بالستر عليه[24].

وقال الحسن أيضا: من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له، ومن قتّر عليه فلم ير أنه ينظر له فلا رأي له، ثم قرأ: ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ**﴾ (الأنعام: 44)[25].

"وعلى هذا فينبغي للفرد المسلم والجماعة المسلمة والأمة بمجموعها أن لا يغتروا بنعم الله عليهم وأن يخافوا على أنفسهم من أن يكون تواتر النعم عليهم استدراجا لهم وليس إكراما وإنعاما لهم. والذي يرجح أن هذه النعم إكرام لهم من الله تعالى مسارعتهم إلى شكرها بشكر المنعم عليها بالقيام بحق نعم الله ووضعها في مواضعها والزيادة في طاعة الله والإتيان بما يحبه من الجهاد في سبيله"[26].

رابعا: سنة الله في الإملاء

وردت مادة الإملاء عشر مرات في القرآن الكريم بست صيغ:

- **صيغة**: (أملى) مرة واحدة، منسوبة لإبليس اللعين[27]

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ**﴾ (محمد: 25).

جاء في جامع القرطبي: "أي مد لهم الشيطان في الأمل ووعدهم طول العمر، عن الحسن. إن الذي أملى لهم في الأمل ومد في آجالهم هو الله عز وجل, قاله الفراء والمفضل. وقال الكلبي ومقاتل: إن معنى "أملى لهم" أمهلهم, فعلى هذا يكون الله تعالى أملى لهم بالإمهال في عذابهم" [28].

ويقول ابن كثير عن نفس الآية: "أي فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر ﴿**مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ**﴾ أي زين لهم ذلك وحسنه (وَأَمْلَىٰ لَهُمْ) أي غرهم وخدعهم"[29].

- صيغة (أمليت) منسوبة لله عز وجل، مرتين في سورة الحج؛

قال تعالى: ﴿**وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ. فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ**﴾ (الحج: 44-45).

يفسر ابن كثير هذه الآية فيقول: "فأمليت للكافرين أي أنظرتهم وأخرتهم،

ثم أخذتهم فكيف كان نكير أي فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم؟!

وجاء في الأثر أنه كان بين قول فرعون لقومه أنا ربكم الأعلى وبين إهلاك الله له أربعون سنة. وفي الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال "إن الله ليملي لظالم حتى إذا أخذه لم يفلته"[30]. ثم قرأ ﴿**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾ (هود: 102)"[31].

ويقول القرطبي: "أي أخرت عنهم العقوبة. فعاقبتهم. استفهام بمعنى التغيير؛ أي فانظر كيف كان تغييري ما كانوا فيه من النعم بالعذاب والهلاك، فكذلك أفعل بالمكذبين من قريش.

قال الجوهري: النكير والإنكار تغيير المنكر، والمنكر واحد المناكير"[32].

وقال: ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ**﴾ (الحج: 48).

يقول القرطبي: "أمليت لها أي أمهلتها مع عتوها. ثم أخذتها أي بالعذاب"[33].

وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ**﴾ (الرعد: 32).

يقول ابن كثير: "يقول تعالى مسليا لرسوله في تكذيب من كذبه من قومه (ولقد استهزئ برسل من قبلك) أي فلك فيهم أسوة (فأمليت للذين كفروا) أي أنظرتهم وأجلتهم (ثم أخذتهم) أخذة رابية فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم وأمليت لهم"[34].

أما القرطبي فيقول: "أي سخر بهم، وأزرى عليهم؛ فأمهلت الكافرين مدة ليؤمن من كان في علمي أنه يؤمن منهم؛ فلما حق القضاء أخذتهم بالعقوبة. أي فكيف رأيتم ما صنعت بهم؟ فكذلك أصنع بمشركي قومك"[35].

صيغة (أملي) منسوبة دوما له عز وجل، مرتين مقترنة فيهما بسنة الإستدراج، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ. وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**﴾ (الأعراف: 182).

يقول ابن كثير: "قال تعالى (وأملي لهم) أي وسأملي لهم أي أطول لهم ما هم فيه (إن كيدي متين) أي قوي شديد."[36].

ويقول القرطبي: "أي أطيل لهم المدة وأمهلهم وأؤخر عقوبتهم (إن كيدي) أي مكري (متين) أي شديد قوي، وأصله من المتن، وهو اللحم الغليظ الذي عن جانب الصلب قيل: نزلت في المستهزئين من قريش، قتلهم الله في ليلة واحدة بعد أن أمهلهم مدة"[37].

وقال: ﴿**فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ. وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**﴾ (القلم: 44).

يقول ابن كثير: "أي وأؤخرهم وأنظرهم وأمدهم وذلك من كيدي ومكري بهم ولهذا قال تعالى ﴿**إن كيدي متين**﴾ أي عظيم لمن خالف أمري وكذب رسلي واجترأ على معصيتي"[38].

وفي الجامع للقرطبي: "أي أمهلهم وأطيل لهم المدة. والملاوة: المدة من الدهر. وأملى الله له أي أطال له. وقيل: (وأملي لهم) أي لا أعاجلهم بالموت. والمعنى واحد **إن كيدي متين**﴾ أي إن عذابي لقوي شديد فلا يفوتني أحد"[39].

- صيغة (نملي) مرتين في آية واحدة من سورة آل عمران: ﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ**﴾ (آل عمران: 178).

يقول القرطبي: "الإملاء طول العمر ورغد العيش. والمعنى: لا يحسبن هؤلاء الذين يخوفون المسلمين؛ فإن الله قادر على إهلاكهم، وإنما يطول أعمارهم ليعملوا بالمعاصي، لا لأنه خير لهم. ويقال: (أنما نملي لهم) بما أصابوا من الظفر يوم أحد لم يكن ذلك خيرا لأنفسهم؛ وإنما كان ذلك ليزدادوا عقوبة، وروي عن ابن مسعود أنه قال: ما من أحد بر ولا فاجر إلا والموت خير له[40]... والتقدير ولا يحسبن الذين كفروا أن إملاءنا لهم خير لأنفسهم"[41].

- صيغة (مليا)، قال تعالى: ﴿**قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا**﴾ (مريم: 46).

يقول القرطبي: " أي أترغب عنها إلى غيرها. قال الحسن: يعني بالحجارة. وقال الضحاك: بالقول، أي لأشتمنك، ولأضربنك. وقيل: لأظهرن أمرك. قال ابن عباس: أي اعتزلني سالم العرض لا يصيبك مني معرة؛ واختاره الطبري. وقال الحسن ومجاهد: "مليا" دهرا طويلا"[42].

ويجمع ابن كثير معاني لفظة مليا فيقول: "واهجرني مليا" قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن إسحاق يعني دهرا وقال الحسن البصري زمانا طويلا. وقال السدي "واهجرني مليا" قال أبدا، وعن ابن عباس "واهجرني مليا" قال سويا سالما قبل أن تصيبك مني عقوبة وكذا قال الضحاك وقتادة وعطية الجدلي ومالك وغيرهم و اختاره ابن جرير" [43].

- صيغة (تملى)، قال تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا. وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾ (الفرقان: 5).

وهذه الصيغة دالة على الإملاء في الكتابة وهو خارج موضوع الإملاء المقصود هنا كسنة إلهية في معاقبة الكافرين.

أما الصيغ السابقة فمن خلال السياقات القرآنية وأقوال المفسرين يتشكل لدي تصور قرآني عن سنة الإملاء.

- الإملاء في المادة القرآنية والتفسيرية إملاءان: إملاء الله، وإملاء الشيطان. وكلا الإملائين خاص بالكافرين.

- إملاء الله للكافرين يشمل إمهالهم في العذاب، وإنظارهم إلى أجل لاحق، وتأخير عقوبتهم وتأجيلها، وتطويل عمرهم ومده تعالى في أعمارهم وآمالهم.

- إملاء الشيطان للكافرين يكون بوعدهم بطول العمر والتغرير بهم وخداعهم في أن طول أعمارهم وسلامتهم رغم معاصيهم تأييد ورضي من الله عنهم، أو غفلة وعجز عن عقوبتهم.

- الإملاء يولد في نفس المملى لهم حب الحياة والبقاء والحرص على طول العمر وسلامة البدن ورغد العيش. وهذا السلوك يؤدي إلى فساد في التصور يتنامى عند المملى لهم في فهمهم للحياة ومواقفها السارة والضارة، واختلال ميزان الأعمال والعواقب عندهم، وهذا من آثار سنة الإملاء في نفوسهم.

- تعمل سنة الإملاء بالتوازي مع سنة الاستدراج وبالتلازم معها، فكلتا السنتين تلازم الأخرى وتقتضيها، فالكافر لا تستدرجه معاصيه إلا إذا أملى الله له وأمهله، وهذا الإمهال والإنظار هو الذي يجعله يغتر فيسير مستدرجا نحو جزائه السنني المحتوم.

- من أسباب الإملاء؛ الكفر والظلم والتكذيب بآيات الله ودينه ورسله والاستهزاء بهم وبدعواتهم.

- عاقبة المملى لهم وخيمة في الدنيا والآخرة، فسيأتيهم العذاب ويأخذهم على حين غرّة فيهلكهم في الدنيا، ويوم القيامة ينتظرهم العذاب المهين المرصود لهم.

- من طبيعة سنن الله سرعة وقوع جزاءاتها، لكن سنة الاستدراج والإملاء استبقاها الله دون غيرها ليوقع جزاءاتها وفق ما تقتضيه حكمته ومشيئته، ولذلك تكفل الله بجزاء المستدرجين المملى لهم، فقال تعالى: ﴿**فذرني**﴾.

- سنة الإملاء تخزن ذنوب الكفرة الظالمين وتضخم أرصدتهم في بنوك العذاب فتتزايد آثامهم وتتعاظم ذنوبهم وبالتالي يعظم جزاؤهم ويشتد عذابهم وهم غافلون عن كل ذلك.

- سنة الإملاء أفضل علاج لأمراض اجتماعية خطيرة هي الكفر والتكذيب والظلم والارتداد والاستهزاء، فالمرض الاجتماعي إذا عمّ مجتمعا أو قرية أو جيلا، جاء الجزاء بنفس حجم الجرم جماعيا لينهي حالة الفساد.

"والبلد الذي تصل فيه الأوضاع إلى هذا الدرك السافل لا بد من أن تحل به العقوبة العدل. وما تقوم لأهله عند الله حجة. أو ينهض لهم عذر. إن الإسلام بادي الصرامة في محاربة الرذائل لا يفتر عن مهاجمتها، ولا تنكسر حدته في مطاردتها"[44].

ورغم كلّ ذلك، تبقى سنّة الله في الإملاء والاستدراج مظهرا من مظاهر رحمة الله ورأفته بعباده حتى وإن تلبّسوا بالمعاصي والكفر، فباب التوبة مفتوح في كل زمان ومكان ولكل أحد.

"ولولا أن رحمة الله تغلب غضبه، وأنه يمهل الخاطئين ليمنحهم فرصة المثاب، وينسأ لهم في الأجل، ويمدّ لهم في الحياة، كي يرجعوا إلى الله بخير يرشحهم لعفوه... لولا هذا لسلّط عليهم عذاب الاستئصال... ومع هذا الإرجاء، فإنّ المجرمين قد يواقعون مآسي تستعجل النقمة، فإما أن يسرع الله بعقابهم عدلا في الحكم، وإصلاحا للأرض، وإما أن يتدرج في إيقاع الجزاء الدنيوي بهم، لعل هذه الأخذات المحدودة توقظ ما نام من ضمائرهم، إلى طريق الرشاد مرة أخرى"[45].

وهذا حال سنن الله في خلقه، ولكن الناس يغفلون عن مظاهر رحمة الله فيها، ولا يسترعي انتباههم إلا صرامة السنن وحدّيتها.

هذا، ولا تدّعي هذه الدراسة السّريعة أنّها قد استوفت حقّ هذه السنة الإلهية من البحث، فالموضوع يحتاج لتأصيل أكثر، خاصة في جوانبه التطبيقية تاريخيا وواقعيا، لنكتشف الاستدراج والإملاء الإلهيين للكافرين والمكذبين، ونتائجه الوخيمة على البشرية قديما وحديثا.

الهوامش:

[1]- ابن منظور: لسان العرب، 92/3.

[2]- الراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ص167.

[3]- الفيروز أبادي: بصائر ذوي التمييز، 592/2.

[4]- المعجم الوسيط، 277/1.

[5]- الزمخشري: الكشاف، 595/4. ويجدر التنبيه هنا على قول الزمخشري "يورطه" فالضمير فيه يحتمل كونه متعلقا بالله عز وجل، مما يوهم وصف الله تعالى بالتوريط!، جلّ الله وتنزّه عن ذلك، ولعل كلام الزمخشري عن المعنى اللغوي، إذ لا يحسن إيراد هذا الوصف في حق الله تعالى.

[6]- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 329/7.

[7]- الألوسي: روح المعاني، 126/9.

[8]- محمد علي الصابوني: قبس من نور القرآن الكريم، ص97-98.

[9]- انظر مثلا: الزمخشري: الكشاف، 595/4. تفسير بن كثير، 408/4. الألوسي: روح المعاني، 251/18.

[10]- سفيان بن الشيخ الحسين: سنن الله في الخلق، ص56.

[11] - إن الضمير في هذا السياق يعود على الله عز وجل، فيجب الاحتراز من وصف الذات الإلهية بمثل هاته الأوصاف. لذا وجب التعليق على هذا الكلام المنقول بحرفيته من باب الأمانة العلمية.

[12]- نفسه، ص55.

[13]- زيدان عبد الكريم: السنن الإلهية، ص 232- 233. وانظر: الزمخشري: الكشاف، 182/2. تفسير بن كثير، 280/2. الألوسي: روح المعاني، 126/9. الرازي: مفاتيح الغيب، 73/15...

[14] - رواه أحمد والطبراني والبيهقي من حديث عقبة بن عامر. قال الأستاذ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على مسند أحمد: حديث حسن، وهذا إسناد ضعيف لضعف رشدين بن سعد، وباقي رجال الإسناد ثقات. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الأوسط عن شيخه الوليد بن العباس المصري وهو ضعيف.

ينظر: مسند أحمد، مسند الشاميين، حديث عقبة بن عامر الجهني، 145/4. البيهقي: شعب الإيمان، الباب الثالث والثلاثون في تعديد نعم الله عز وجل وما يجب من شكرها، ح4540، 128/4. الطبراني: المعجم الأوسط، باب الواو، كتاب من اسمه وليد، ح 9272، 100/9. الهيثمي: مجمع الزوائد، باب فيمن يستعين بالنعم على المعاصي، ح 17796، 245/10.

[15] - ذكره البيهقي في شعب الإيمان بعد الحديث السابق مباشرة، عن عمر بن سعيد قال: قال أبو حازم وذكره، ح 4538، 128/4.

[16]- أخرجه الطبراني في مسند الشاميين من حديث عبادة بن الصامت، ح 19، 34/1. والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، ح 955، 246/1.

[17]- تفسير ابن كثير، 133/2.

[18]- انظر ذلك عند الألوسي: روح المعاني، 151/7-152.

[19]- عبد الكريم زيدان: السنن الإلهية، ص 234.

[20]- محمد علي الصابوني: قبس من نور القرآن الكريم، 97/3.

[21]- محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي، ص 123.

[22]- عبد الكريم زيدان: السنن الإلهية، ص 235.

[23]- ذكر هذا الأثر ابن منظور: لسان العرب، 92/3.

[24]- أورده: القرطبي: الجامع، 251/18.

[25]- وقول الحسن ذكره سفيان بن الشيخ الحسين: سنن الله في الخلق، ص56.

[26]- د. عبد الكريم زيدان: السنن الإلهية، ص 235.

[27]- هذا أشهر أقوال المفسرين، وقيل الإملاء من الله لا من الشيطان، والتقدير الشيطان سول لهم والله أملى لهم، وفي قراءة: أملي كأنه عز وجل قال: وأنا أملي لهم. راجع القرطبي، 249/16.

[28]- أبو عبد الله القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 249/16.

[29]- تفسير ابن كثير، 181/4.

[30]- رواه الشيخان واللفظ للبخاري من حديث أبي موسى، قال عنه الترمذي: حسن صحيح غريب، صحيح البخاري، باب قوله وكذلك أخذ ربك، ح 4409، 1726/4. صحيح مسلم، ح 2583، 1997/4. سنن الترمذي،ح 3110، 288/5.
[31]- تفسير ابن كثير، 228/3.
[32]- تفسير القرطبي، 73/12.
[33]- جامع القرطبي، 78/12.
[34]- تفسير ابن كثير، 517/2.
[35]- تفسير القرطبي، 322/9.
[36]- تفسير ابن كثير، 271/2.
[37]- تفسير القرطبي، 329/7.
[38]- تفسير ابن كثير، 409/4.
[39]- تفسير القرطبي، 111/11.
[40]- نفس الأثر نسبه في موضع آخر لابن عباس.
[41]- القرطبي:الجامع، 286/4.
[42]- القرطبي، 252/18.
[43]- ابن كثير، 124/3.
[44]- محمد الغزالي: نظرات في القرآن، ص 102.
[45]- نفسه، ص101-102.